﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: 162 - 163]

❁ مُناسَبَةُ الآيتَينِ لِمَا قَبْلَهما:

لَمَّا ذكرَ في الآيةِ السَّابقةِ أنَّهُ تعالى أرشدَهُ إلى الدِّينِ القويم، والصِّراطِ المستقيم، وختمَ الآيةَ بنفيهِ أنْ يكونَ منَ المشركينَ؛ أكَّدَ هذا النَّفيَ هنا بأنَّ غايتَهُ وعبادتَهُ عامَّةً منْ صلاةٍ ونحوِها، وخاصَّةً منْ ذبحٍ ونحوِهِ، وتَصَرُّفَهُ في حياتهِ ومآلِه بعدَ مماتهِ - إنَّما هيَ للّهِ ربِّ العالمينَ، وحدَهُ لا شريكَ له[1]. فهذه نتيجةُ الهدايةِ ومحصِّلتُها: وهي العبادةُ المَحْضَةُ له تعالى؛ لأنَّه لا شريكَ له تعالى، فَحَرِيٌّ بِعِبَادَةِ المرءِ أنْ تَكُونَ على الغايةِ من الإخلاصِ.

العلاقةُ بينَ ثمرةِ الهدايةِ، وبينِ تمحيضِ العبادةِ والمصيرِ إلى اللهِ دونَ شريكٍ

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَنُسُكِي﴾: جمعُ تكسيرٍ، مفردُها (نَسيكَةٌ)، وجذرُهُ اللُّغويُّ (نسك)، ومعنى النُّسُكِ: الذَّبيحةُ، ثمَّ أصبحَ يُطلَقُ على كلِّ عبادةٍ، وتقرُّبٍ إلى اللهِ[2]. والنُّسكُ بمعنى التَّطهيرِ، فنسكْتُ الشَّيءَ: طهَّرتُهُ وصفَّيتُهُ ممَّا عَلِقَ بهِ منْ أدرانٍ[3]، وبينَ العبادةِ والطَّهارةِ وشائجُ وعلائقُ لا تخفَى، فالعابدُ يخلِّصُ نفسَهُ ممَّا يَعْلَقُ بها منْ أكدارِ الدُّنيا وأوساخِها، وقدِ اختصَّتْ هذهِ اللَّفظةُ بعبادةٍ معيَّنةٍ هيَ الحجُّ ومناسكُ الحجِّ، مواقفُهُ وأعمالُهُ[4].

ومعنى ﴿وَنُسُكِي﴾ في الآيةِ: "أرادَ بالنُّسكِ الذَّبيحةَ في الحجِّ والعمرةِ، وقالَ مقاتلٌ: نسكِي: حجِّي، وقيلَ: ديني"[5].

(1) ابن عطيّة، المحرّرالوجيز: 2/369.
(2) الخليل، العين: (نسك)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نسك).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (نسك)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نسك).
(4) الرّاغب، المفردات: (نسك)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (نسك).
(5) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/211، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/98.

2) ﴿وَمَحۡيَايَ﴾: (الحياةُ) ضدُّ الموتِ، و(الحيُّ) ضدُّ الميِّتِ، و(المَحْيا) مَفْعَل، من الحياة، تقولُ: محياي ومماتي[1]، أَي: حَياتِي وموتي. وَيجوز فِيهَا فتحُ الْيَاءِ وإسكانُها، وَالْأَكْثَرُونَ على فتح محيايَ، وَإِسْكَان مماتي[2]، وتقول: ﴿وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي﴾، والجمع (المحايي) ذكره الجوهريُّ، ويقع على المصدر والزَّمان والمكان[3]. وفي قراءةِ نافعٍ: ﴿وَمَحۡيَآيَ وَمَمَاتِيَ﴾، بسكون ياءِ محيايَ، لكنَّها ملفوظٌ بها ممدودة، وهذا مع كون الأوَّلِ منهما حرفَ مدٍّ[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إخـلاصُ مجملِ العبادةِ والنُّسك والحياةِ والموتِ للهِ وحده دون سواه

يأمرُ الحقُّ ﷻ نبيَّهُ الكريمَ ﷺ أنْ يُخْبِرَ المشركينَ بأنَّ الدِّينَ الحقَّ أنْ تكونَ عبادتي جميعًا، منْ صلاةٍ ونسكٍ للهِ ربِّ العالمين، وأنْ يكونَ صنيعي في حياتي، وعاقبتي بعدَ مماتي كلُّهُ للهِ ربِّ العالمين، فهوَ عينُ الإخلاصِ، فلا يقبلُ اللهُ تعالى إلَّا ما كانَ خالصًا. ثمَّ نفى ﷺ أنْ يكونَ للهِ شريكٌ، وأثبتَ وحدانيَّتَهُ تعالى، والإقرارُ بهذا التَّوحيدِ أمرٌ منهُ تعالى، وأنا أوَّلُ المنقادينَ إليهِ، فلا اختيارَ لي أصلًا، وهيَ أوَّليَّةٌ في المنزلةِ والدَّرجةِ بينَ الأنبياءِ والرُّسلِ، وأوَّليَّةٌ في السَّبقِ والزَّمنِ بينَ بني أمَّتِهِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الآيةُ مستأنَفَةٌ واقعةٌ موقعًا بلاغيًّا مستقلًّا عن غيره:

لا بدَّ للإنسانِ أن يكونَ كلُّهُ للهِ في عبادتهِ وحياتهِ ومماتِه

هذهِ الآيةُ متفرِّعةٌ عمَّا سبقَها منْ هدايتهِ للطَّريقِ المستقيمِ، والتَّوحيدِ، وعدمِ الإشراكِ، فجاءتْ هذهِ لتمامِ تلكَ الهدايةِ والإخلاصِ للهِ، ولكنَّها جاءتْ على سبيلِ الاستئنافِ، ولمْ تُعطَفْ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: 6/2323.
(2) النّوويّ، تحرير ألفاظ التّنبيه، ص: 63.
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: 37/527.
(4) ابن سيده، المحكم: 3/7.

وَصْلًا على تلكَ، وفائدةُ الفصلِ هنا "للإشارةِ إلى أنّهُ غرضٌ مستقلٌّ مهمٌّ في ذاتِهِ، وإنَ كانَ متفرِّعًا عنْ غيرِهِ"[1] مهمٌّ في أن يكونَ حالُ الإنسانِ كلُّه للّهِ عبادةً وحياةً وموتًا.

دلالةُ فعلِ الأمرِ ﴿قُلْ﴾ في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾:

الرَّسولُ مأمورٌ بتبليغِ دعوةِ اللهِ تعالى على الوجهِ الأكملِ

قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ استهلَّ الحقُّ ﷻ الآيةَ بفعلِ الأمرِ ﴿قُلْ﴾ أمرٌ منهُ تعالى للرَّسولِ ﷺ، أنْ يُظْهِرَ للنَّاسِ حالَ عبادتِهِ، ومآلَ شأنِهِ في حياتِهِ ومماتِهِ[2].

والتَّعبيرُ بهذا الفعلِ لدلالتِهِ على التَّبليغِ بالدَّعوةِ[3]، ويلاحظ أنَّ الأوامرَ والنَّواهي والأحكام الَّتي تأتي بعد هذا الفعل، تستحقُّ التَّنبُّهَ لها والحرصَ على أن يتولَّى النَّبيُّ ﷺ تَبْليغَها بنفسِهِ للأمَّةِ.

فائدةُ توالي المؤكِّداتِ في الآيةِ الكريمة:

الاهتمامُ بمضمونِ ركنَيِ الجملةِ وتحقيقهما

تتابعتْ عدَّةُ مؤكِّداتٍ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾، فالجملةُ مُفْتَتَحةٌ بحرفِ التَّوكيدِ ﴿إِنَّ﴾، للاهتمامِ بالخبرِ وتحقيقِهِ، فضلًا عن مجيئِها بالاسميَّة، وفي هذا التَّعبيرِ ردٌّ على المشركينَ الَّذينَ كانوا يتَّهمونهُ ﷺ، بالرِّياءِ في صلاتِهِ[4]. فتوالتِ المؤكِّداتُ، اهتمامًا بمضمونِ الجملةِ بِرُكْنَيْها، لبيانِ كمالِ الوصفِ في عبادتِهِ ﷺ للّهِ تعالى، وأنَّها خالصةٌ لهُ تعالى، وليسَ لغيرِهِ منْ أصنامٍ يعبدونَها، أوْ أوثانٍ يتوجَّهونَ إليها.

بلاغةُ التَّرتيبِ بينَ (الصَّلاةِ) و(النُّسكِ) و(المحيا) و(المماتِ):

العبادةُ أصلٌ في خلقِ الإنسانِ، والأصلُ مقدَّمٌ على سواهُ

قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾، قدَّمَ الصَّلاةَ والنُّسكَ على المحيا والمماتِ، وسرُّ ذلكَ أنَّ الغايةَ منْ خلْقِ الإنسانِ، هيَ العبادةُ، و"أنَّهُ قدْ وجَّهَ وَجْهَهُ، وحصرَ نيَّتَهُ وعزمَهُ في حبسِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/201.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/195.
(3) رضا، تفسير المنار: 8/210.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/201.

حياتِه لطاعتِه ومرضاتِه، وبَذْلِهَا في سبيلِه"[1]، لقولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذّاريات: 56]، فهذا هو الأصلُ، وهو مقدَّمٌ على غيرِه.

نكتةُ عطفِ النُّسكِ على الصَّلاةِ:

عـطْـفُ الـعـامِّ عـلـى الـخـاصِّ لاشتمالِ الدِّين على الصَّلاةِ

وعَطْفَ النُّسكَ على الصَّلاةِ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ منْ معاني النُّسكِ في الآيةِ، فيكونُ عطفُ النُّسكِ على الصَّلاةِ منْ بابِ عطفِ الأعمِّ على الأخصِّ؛ لأنَّ الدِّينَ والعبادةَ مشتملٌ على الصَّلاةِ، وفائدتُهُ التَّعميمُ، وإفرادُ الخاصِّ بالذِّكرِ اهتمامًا بشأنِه، فالصَّلاةُ عمودُ الدِّينِ[2].

ولتقديمِ الصَّلاةِ على النُّسكِ إشارةٌ أخرى، وهيَ أنَّ الصَّلاةَ لازمةٌ على الجميعِ، وهيَ الرُّكنُ الثَّابتُ الَّذي لا يسقطُ أبدًا؛ فيصلِّيها المرءُ ولوْ إيماءً[3]، والحجُّ لا يجبُ إلَّا بتوافرِ شرائطِه، وهي الاستطاعةُ لقولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: 97].

دلالةُ التَّعبيرِ بالصَّلاةِ والنُّسكِ مقترنَيْنِ مجتمِعَيْنِ:

ذكـرُ (الـصَّـلاة والـنُّـسـك)، لفشوِّ الشِّركِ في ممارستِهما آنئذٍ

قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾، أوردَ الصَّلاةَ، وهيَ أوَّلُ أركانِ الإسلامِ العمليَّةِ بعدَ الشَّهادةِ، ثمَّ قرنَها بذِكْرِ النُّسُكِ حقيقةً، أوْ بكونِه دالًّا على الحجِّ[4]، والمقصدُ منْ ذلكَ الإشارةُ إلى أنَّ أركانَ الإسلامِ تقعُ بينَ هذينِ الرُّكنينِ العظيمينِ: الصَّلاةِ والحجِّ.

وفي اقترانِ الصَّلاةِ بالنُّسُكِ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ غرضٌ، وهوَ أنَّ منْ معاني النُّسكِ التطهُّرَ منَ الآثامِ

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 8/90.
(2) السّيوطي، معترك الأقران: 1/272، ورضا، تفسير المنار: 8/214.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ: 7/4012.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/98، والشّيخ زاده، حاشية الشّيخ زاده: 4/183.

والأدرانِ "وقيلَ للمتعبِّدِ ناسكٌ؛ لأنَّهُ خلَّصَ نفسَهُ منْ دنائسِ الآثامِ وصفَّاها"[1]. والصَّلاةُ أكبرُ سببٍ لطهارةِ الإنسانِ العينيَّةِ والمعنويَّةِ لقولهِ ﷺ: «أرأيتمْ لوْ أنَّ نَهَرًا بِبابِ أحدِكمْ، يغتسلُ فيهِ كلَّ يومٍ خمسًا، ما تقولُ ذلكَ يُبْقي منْ دَرَنِهِ؟ قالوا: لا يُبْقي منْ دَرَنِهِ شيئًا، قالَ: فذلكَ مِثْلُ الصَّلواتِ الخمسِ، يمحو اللّهُ بهِ الخطايا»[2]. وفي اقتصارِ الذِّكْرِ على هذينِ النَّوعينِ منْ عمومِ العبادةِ، وهما الصَّلاةُ والنُّسكُ، كونهما مِنَ المظاهرِ العظيمةِ الظَّاهرةِ، الَّتي فشا فيهما الإشراكُ في ذلكَ الوقتِ[3]؛ لقولهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: 35]، وقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: 3].

دلالاتُ التَّعبيرِ بالمصدرِ الميميِّ ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾:

قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، (محيايَ ومماتي)، مِنَ المصادرِ الميميَّةِ، فالمعنى على تقديرِ مضافٍ، وهوَ أعمالُ المحيا والممات، أوِ الأَعْمَالُ الَّتي تقترنُ بحياةِ المرءِ وموتِهِ، وتلتبسُ بهِ مِنَ العملِ الصَّالحِ والإيمانِ[4].

التَّعبيرُ على حذفِ مضافٍ، تقديرهُ: (أعمالُ المحيا والمماتِ)

دلالةُ ضمير ﴿صَلَاتِي﴾، ودلالة لام ﴿لِلَّهِ﴾ مضافةٌ إلى الألوهيَّةِ:

قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، إيرادُ الصَّلاةِ مضافةً إلى ضميرهِ ﷺ ﴿صَلَاتِي﴾، واقترانُ اللَّام بلفظِ الجلالةِ ﴿لِلَّهِ﴾، الدَّالَّةِ على الملكِ والاستحقاقِ[5]، فيهِ تعريضٌ بالمشركينَ الَّذينَ يُصلُّونَ للأصنامِ بالسُّجودِ لها، ويذبحونَ لغيرِ اسمِهِ تعالى[6].

تعريضٌ بجعلِ المشركينَ صلاتَهم ونُسُكَهم لغيرِ اللهِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/13، والنيّسابوريّ، غرائب القرآن: 3/194.
(2) البخاري، الجامع الصحيح، رقم: (528).
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/214.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 8/70، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/102.
(5) الزّجّاجي، اللاّمات، ص: 65.
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/381، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/201.

نكتةُ الجمعِ بين الألوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ في ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

ربوبيَّتُهُ تعالى لخلقِهِ سببُ استحقاقِهِ العبادةَ دونَ غيرِهِ

لَمَّا ذكرَ صلاتَهُ ونُسكَهُ، ومَحْياهُ ومماتَهُ؛ جعلهُ للّهِ، ثمَّ زادَ عليها صفةَ الرُّبوبيَّةِ بقولِه: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وسرُّ اختيارِ هذهِ السِّمةِ؛ لأنَّها المستأهلةُ لأنْ يكونَ صنيعُ مخلوقاتِهِ وعبادتُهمْ لهُ وحدَهُ، بما تفَضَّلَ عليهمْ مِنَ الخلقِ والرِّزقِ والإيجادِ، ومنْ بيدِهِ الموتُ والحياةُ[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بالخبرِ في ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ﴾:

التَّعريضُ بالمشركينَ وغباوتِهمْ في سجودِهمْ للأصنامِ العاجزةِ

قولُه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، لفظُ الجلالةِ ﴿لِلَّهِ﴾، متعلِّقٌ بمحذوفٍ، خبرٌ، أي: خالصًا للّهِ[2]، وتتجلَّى فائدةُ التَّعبيرِ بالخبرِ: أنَّهُ جعلَ "صلاتَه للّهِ دونَ غيرِهِ، تعريضًا بالمشركينَ، إذْ كانوا يسجدونَ للأصنامِ، ولذلكَ أردفَ بجملةِ ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾"[3]، واللّهُ أحقُّ أن يسجدُوا له، لو كانوا يفقهون.

الموقعُ النَّحْويُّ والبيانيُّ لجملةِ التَّوحيدِ ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾:

غرضُ جملةِ نفي الشَّريكِ الحاليَّةِ، التَّعريضُ بالمشركينَ والتَّوبيخُ لهم

وتقعُ جملةُ التَّوحيدِ ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾، موقعًا بيانيًّا ونحْويًّا، باتِّصالِها بما قبلَها في كونِها حالًا من لفظِ الجلالةِ من قولِهِ تعالى: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ومزيَّةُ الحالِ هنا أنَّها ردٌّ على المشركينَ، وتعريضٌ بهمْ، وتوبيخٌ لهمْ، بأنَّهمْ لمْ يخلصوا لخالقِهمْ، وأنَّهمْ أشركوا معهُ تعالى غيرَهُ، وهوَ الجديرُ بالوحدانيَّةِ[4]، ويمكن أن تكون الجملةُ في محلِّ جرٍّ صفةً للفظ الجلالة.

الدِّلالةُ النَّحْويةُ للأداة ﴿لَا﴾ النَّافيةِ للجنسِ:

نفيُ الشَّريكِ منْ كلِّ وجهٍ؛ لأنَّ الإخلاصَ منْ لوازمِ العبادةِ

أوردَ (لا) النَّافيةَ للجنسِ في قولِه تعالى: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾؛ لأنَّه أرادَ نفيًا للشَّريكِ من كلِّ وجهٍ، بدلالةِ هذا الحرفِ[5]، الدَّالِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/203، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2763.
(2) المنتجب الهمذانّي، الفريد في إعراب القرآن المجيد: 2/734.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/201.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/203.
(5) مجموعة من الأساتذة، إعراب القرآن الكريم: 2/673.

على التَّبرئةِ المَحْضَةِ، وهذا النَّفيُ المؤكَّدُ جاءَ عقبَ بيانِ أنَّ أحوالَ الإنسانِ كلَّها منْ عبادةٍ وحياةٍ وموتٍ للهِ ربِّ العالمين، فهذا النَّفيُ توكيدٌ لذلكَ البيانِ، فلا يكفي في العباداتِ أنْ تؤدَّى بأفضلِ صورةٍ، بلْ يجبُ أنْ يقترنَ معها تمامُ الإخلاصِ[1].

نكتةُ الإضمارِ بعد الإظهارِ في قولِهِ تعالى ﴿لَهُۥ﴾:

في الإضمارِ إشارةٌ إلى أنَّ العبادةَ مبنيَّةٌ على الإخلاصِ للمعبودِ وحدَه

وقولُه تعالى: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ فيهِ إضمارٌ بعدَ الإظهارِ، وهوَ متأتٍّ على بابهِ لغةً، ونُكتتُهُ أنَّهُ لمَّا كانَ السِّياقُ في التَّوحيدِ، ونبْذِ الشِّركِ والرِّياءِ، أضمرَ الاسمَ في إشارةٍ إلى أنَّ العبادةَ مبنيَّةٌ على الإخلاصِ بينَ العبدِ وربِّهِ، فغايةُ الإضمارِ هو الإيجازُ.

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾، وإفادتُها العطف:

سرُّ عطفِ الجملةِ على مقولِ القولِ بدلالتِها على أنَّ الأمرَ للهِ وحدَه

والواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾، تفيدُ العطفَ، والجملةُ معطوفةٌ على جملةِ ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾، فهو أمرٌ منه تعالى، بأنْ يقولَ هذا القولَ[2]، وفيه أنَّ جميعَ أحوالِ الإنسانِ من عبادةٍ وحياةٍ وموتٍ، إنَّما هي صائرةٌ إليه ﷻ.

معنى الباءِ في قوله تعالى: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾:

لا إسلامَ ولا ثباتَ عليه إلَّا بمعونةِ الحقِّ (تعالى) وهدايتِهِ

ومعنى الباءِ في قولِه تعالى: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾، تفيدُ الاستعانةَ والاعتمالَ[3]، وهوَ أحدُ أشهرِ مَعَانيهَا، " أي: إنَّ ذلكَ كانَ للهِ بهدي مِنَ اللهِ وأمرٍ منهُ، فرجعَ إلى قولِه: ﴿إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾"[4] فالدُّخولُ في الإسلامِ، والثَّباتُ عليهِ، كانَ بمعونةِ الحقِّ ﷻ وهديهِ، وقد تفيد السَّببيَّةَ أيضًا.

دلالةُ البُعْدِ في اسمِ الإشارةِ (ذلك) ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾:

الـلَّامُ مُـؤْذِنـةٌ بـعـلـوِّ المـشـارِ إلـيـه، وبُـعْـدِ منزلتِه عند الآمرِ

واسمُ الإشارةِ في قولِه تعالى: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾، جاءتْ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/12.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/204.
(3) الموزعيّ، مصابيح المغاني، ص: 80.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/204.

متضمِّنةً لامَ البعدِ، والكافُ للخطابِ، ودلالةُ التَّعبيرِ بهِ "إشارةٌ إلى الإخلاصِ، وما فيهِ منْ معنى البُعدِ؛ للإشعارِ بعلوِّ رتبتهِ، وبُعْدِ منزلتهِ في الفضلِ، أي: بذلكَ الإخلاصِ"[1]. المذكورِ قبلَه، وهو جملةُ ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾؛ لأنَّه نفيُ الشَّريكِ من كلِّ وجْهٍ.

سرُّ العدولِ في فعلِ الأمرِ إلى البناءِ للمفعولِ ﴿أُمِرْتُ﴾:

الحثُّ على الانشغالِ بالأمرِ نفسِهِ لعظمةِ الآمرِ، ومعرفتِنا بجلالِهِ

وفعلُ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾، بُنِيَ الفعلُ هنا للمفعولِ، بحذفِ الفاعلِ العائدِ عليهِ (سبحانهُ)، وسرُّ ذلكَ أنَّهُ تعالى لهُ في كلِّ شيءٍ آيةٌ، تدلُّ على أنَّهُ واحدٌ، وأنَّ دينَهُ الإسلامُ في شدَّةِ ظهورِهِ وانتشارِهِ، ليسَ بهِ حاجةٌ إلى الأمرِ، فكيفَ إذا برزتِ الأوامرُ الإلهيَّةُ، والدَّواعي الرَّبَّانيَّةُ[2]، فالحذفُ للإيجازِ من ناحيةٍ، وللدَّعوةِ للانشغالِ بالأمرِ نفسِهِ دون الآمرِ.

بلاغةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على الفعلِ في ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾:

عِلَّةُ الاهتمامِ بشأنِ المشارِ إليهِ، وهوَ العبادةُ، وأنَّهُ بهَدْيٍ منهُ تعالى

قولُه تعالى: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ هنا قدَّمَ الجارَّ والمجرورَ على الفعلِ، والأصلُ تأخيرُهُ، وسببُ تقديمِهِ للاهتمامِ بشأنِ المشارِ إليهِ، والاعتناءِ به، أي: إنَّ صَلَاتِيْ ونسكي كانَ بهدي منهُ تعالى[3].

الدَّلالةُ النَّحويَّةُ للواوِ في قولِه: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾:

الواوُ عاطفةٌ؛ لأنَّه لمَّا أمرهُ تعالى، كانَ أوَّلَ المجيبين

قولُه تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، دلالةُ الواوِ هنا العطفُ على جملةِ: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾، فإنَّه لمَّا أمرَني ربِّي؛ أجبْتُهُ فورًا، والأوَّليَّةُ هنا على سبيلِ الرَّغبةِ والمحبَّةِ؛ فإنَّ مَنْ أحبَّ شيئًا سارعَ إليهِ. ومن الممكن أن تكونَ الواوُ حاليَّةً على معنى: وبذلك أُمرتُ، والحال أنِّي أوَّلُ المسلمين، قال الشَّعراوي: "إنَّ الرَّسولَ ﷺ، له منزلةٌ بين رسل اللّه أجمعين، تتجلَّى في أنَّه أُخِذَ العهد على غيره له، ولم يؤخذِ العهدُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/315، والشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/629.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/340.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/204.

عليه لأحدٍ، فإنْ كان أوَّلَ المسلمين في أمَّته؛ فهو أوَّلُ المسلمين بين الرُّسُلِ أيضًا، وإن لم تأخذها حدثًا؛ خذها للمكانة"[1].

التَّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ، يدلُّ على الثُّبوتِ والدَّوامِ:

والتَّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، يحقِّقُ الثَّباتَ والاستقرارَ والدَّوامَ؛ لما في الاسمِ منْ مزيَّةِ الثُّبوتِ والدَّوامِ، فلا أثبتَ منهُ ﷺ في إسلامِه وإيمانِه.

لا أثبتَ من الرَّسولِ الأكرمِ، فهوَ منتظمٌ في المسلمينَ على جهةِ الدَّوامِ

الإخبارُ بكونِهِ أوَّلَ المسلمينَ، مع أنَّه معلومٌ محقَّقٌ:

وأخبرَ عنْ نفسِهِ بكونِهِ أوَّلَ المسلمينَ معَ أنَّهُ معلومٌ متحقِّقٌ؛ لأنَّ الخبرَ هنا ليسَ على معناهُ الصَّريحِ أصلًا، فهوَ قليلُ الجدوى لِمن لم يؤمن؛ فكلُّ من يدعو إلى أمرٍ، فهوَ أوَّلُ أصحابِه منْ بَابِ أولى، فليسَ المعنى كونَهُ مسلمًا خاضعًا للهِ هوَ وبنوهُ، فإنَّ هذا متحقِّقٌ، وإنَّما المعنى: أنَّهمْ متمكِّنونَ مترجِّحونَ في دينِهمْ، وفيهِ تيئيسٌ للمشركينَ مِنَ التَّخلِّي عنْ دينِهمْ، ولوْ كانَ تَخَلِّيًا ضئيلًا[2].

تيئيسُ المشركينَ مِنَ التَّخَلِّي عنْ إيمانِهمْ، والمسلمُ متمكِّنٌ في دينِهِ

فائدةُ الإضافةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾:

والتَّعبيرُ بكونِهِ أوَّلَ المسلمينَ، ليسَ الغرضُ منهُ بيانَ أسبقيَّتِهِ الزَّمنيَّةِ، ولا "يريدُ أنَّهُ كانَ في المعالي أقدمَ منْ غيرِهِ؛ لأنَّ في أهلِ المعالي مَنْ هوَ أكبرُ منهُ سنًّا، ولكنَّهُ أرادَ أنَّهُ تمكَّنَ منْ نوالِ العُلا، وأصبحَ الحائزَ لهُ، والثَّابتَ عليهِ"[3]، وأنَّه أحبَّ ذلكَ الهدفَ، ورغبَ فيه، ومن أحبَّ شيئًا أسرعَ إليه، فهو من بابِ التَّمكُّنِ من الإسلامِ والاغتباطِ به.

الأوَّليَّةُ من بابِ الإسراعِ إلى الشَّيءِ المرغوبِ، حُبًّا وتمكُّنًا

المتشابه اللَّفظيّ بين ﴿أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، و﴿أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، هوَ منْ حديثِ الرَّسولِ ﷺ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ (الخواطر): 7/4024، ولقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: 81].

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/204 - 205.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/204.

ووصفِهِ لنفسهِ، وقد وصفَ موسى عليه السلام نفسَهُ بأنَّهُ أوَّلُ المؤمنينَ بقولهِ: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: 143]، فيُسألُ عن الفرقِ بينَ التَّعبيرين؟

الإسلامُ من محمَّدٍ ﷺ بمعنى الإيمانِ، والإيمانُ من موسى عليه السلام بمعنى التَّصديقِ

والجوابُ عن ذلكَ: أنَّ لفظتي الإسلام والإيمان، كما هو مقرَّرٌ: إذا افترقتا اجتمعتا، وإذا اجتمعتا افترقتا، ففي الآيتَيْن الكريمتين أُريد بهما الإسلام والإيمان معًا.ثمَّ إنَّ عبارةَ ﴿أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ خاصَّةٌ بهِ ﷺ، فهوَ أوَّلُ أهلِ مكَّةَ إسلامًا. أمَّا عبارةُ ﴿أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فهيَ جاءتْ على لسانِ موسى عليه السلام، ولمْ يُرِدِ الدِّينَ بلْ أرادَ أنَّهُ أوَّلُ المصدِّقينَ في امتناعِ رؤيةِ الحقِّ ﷻ في الدُّنيا[1]، بعد أن تجلَّى ربُّه للجبلِ، فخرَّ موسى صعقًا.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الصَّلاة) و(النُّسك) و(الشَّعيرة):

الصَّلاةُ معروفةٌ مألوفة دلالةً وممارسةً، وهيَ الرُّكنُ الثَّاني الرَّكينُ في الإسلامِ؛ ولذلكَ قدَّمها في قولهِ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ لأهمِّيَّتِها، ولا يقبلُ عملُ مسلمٍ إلَّا بها؛ ولقولِه: ﷺ: «أولُّ شيءٍ مِمَّا يُحاسَبُ بهِ العبدُ يومَ القيامةِ صلاتُه المكتوبةُ»[2].

الصَّلاةُ معروفةٌ، والنُّسكُ غلبَ على الحجِّ، والشَّعيرةُ من بابِ المجازِ

أمَّا النُّسكُ؛ فهو العبادةُ عمومًا في أصلِه، ثمَّ غلبَ على الرُّكنِ الخامسِ، وهو الحجُّ[3]، فقيلَ: مناسكُ الحجِّ، وإنْ كانَ معنى النُّسكِ في الآيةِ العبادةَ عمومًا؛ فيكونُ قولُهُ في الآيةِ مِنْ بابِ عطفِ العامِّ على الخاصِّ.

أمَّا الشَّعيرةُ؛ فهيَ "الحديدةُ الَّتي تجعلُ مساكًا لنصلِ السِّكِّينِ،

(1) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 172.
(2) رواه الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (7902).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (نسك).

إذا ركبَ، فإنَّما هوَ مشبَّهٌ بحبَّةِ الشَّعيرِ"[1]. وتُطلقُ أيضًا على البدنةِ الَّتي تُنحرُ لوجهِ اللّٰهِ، وفي ذلكَ استعمالٌ مجازيٌّ، لما بينَ آلةِ الذَّبحِ والمذبوحِ منْ علاقةٍ، والتَّعبيرُ بالنُّسكِ في الآيةِ أعمُّ؛ لأنَّهُ يشملُ مناسكَ الحجِّ كلَّها.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شعر).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني عشر، سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 12 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-64-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 12 : سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-64-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1637585 بتاريخ 2023/12/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»